النفحة السابعة: رَمَضَانُ ولذة القيام

من حكمة العليم الخبير تبارك وتعالى، أنه شرع عبادات متنوعة، وقربات متباينة، فيأخذ العبد المسلم حظه من كل واحدة منها على حدة، وذلك تشويقاً للعبد في الإكثار منها، وترغيباً له في المداومة عليها لئلا يمل ويكسل، فإذا أدى عبادة معينة وفرغ منها، نشط في أخرى وأخرى وهكذا...

ومن جملة هذه العبادات التي شرعها لكم ربكم أيها الصائمون الأكارم في رَمَضَانَ صلاة «القيام أو التراويح» ولهذه الصلاة طعم خاص، ومزية عالية، لما فيها من الأجر العميم، والثواب الكبير، يقول ﷺ كما جاء في الصحيحين: «**مَن قام رَمَضَانَ إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه**»[1].

وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ: صلى في المسجد ذات ليلة، فصلى بصلاته ناس، ثم صلى من القابلة، فكثر الناس، ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة أو الرابعة، فلم يخرج إليهم رسول الله ﷺ، فلما أصبح قال: «**قد رأيت الذي صنعتم، فلم يمنعني من الخروج إليكم إلّا أني خشيت أن تفرض عليكم**»، قال: وذلك في رَمَضَانَ.

ولقد صلاها السلف رضوان الله عليهم أجمعين جماعة في المساجد، بركعات مختلفة ومتعددة، فمنهم من صلاها إحدى وأربعين ركعة، ومنهم من صلاها تسعاً وثلاثين ركعة، ومنهم من صلاها عشرين ركعة، ومنهم من صلاها عشرة مع الوتر، وثمانية مع الوتر.

وكلهم من رسول الله ﷺ ملتمس، ولا يزال أهل الحرمين الشريفين يصلونها عشرين ركعة من عهد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه إلى يومنا هذا، والجميع يسعى

(1) رواه البخاري، 1/ 22، رقم: (37)، ومسلم، 1/ 523، رقم: (759).

لاغتنام الأجر في هذه الليالي المعدودة، والأيام المحدودة، ويرجو الرحمة والرضوان.

ولكن مع كل أسف أصبحنا نرى ظاهرة سيئة تقع لكثير من المسلمين مع مستهل شهر رَمَضَانَ بسبب صلاة التراويح، فلقد أصبح هؤلاء الناس يدخلون ميداناً يتبارون فيه مع المسلمين، ويجعلون عدد ركعات التراويح في قائمة هموم ومشاكل الأمة الإسلامية، ومن أولى أولوياتها، ويبدؤون التراشق مع المسلمين بأنكى العبارات، وأقسى الكلمات، ولربما يصل الأمر ـ وهذا ما يحدث للأسف ـ إلى حد التضليل والتكفير!.

أين هم من حرمة رمضان؟ وأين هم من وصية النبي ﷺ بعدم السباب والقتال!.

وهؤلاء ـ عن حسن أو سوء نية ـ يثيرون البلبلات في وسط الأمة، ويشرخون صفها، ويشعلون الفتن في كيانها والعياذ باللّه.

وكان حري بهؤلاء وأولئك، أن يغضبوا لدين اللّه حيث تداس كرامة المسلمين بأقدام أحفاد القردة والخنازير...

كان حري بهم أن لا يناموا الليل، والمسجد الأقصى قد دنسه الصهاينة المعتدون...

كان حري بهم أن يواجهوا المخاطر التي تمر بها الأمة، فكم دولة عربية وإسلامية أضحت رازحة اليوم تحت نير الاستعمار الغاشم الظالم...

كم من أعراض لنا انتهكت، ومنازل هدمت، ومزارع أتلفت، ونساء رمِّلت، وأطفال شردوا، وكرامة هدرت...

لماذا نجعل عدد ركعات التراويح أم المشاكل، ونغض الطرف عن النكبات التي صبت على العالم الإسلامي صباً!.

يا مسلمـــون:

إن صلاة التراويح نافلة، ومن أداها أثيب وأجر، ومن تركها عوتب ولن

يعاقب على تركها، لأنها ليست فريضة، لكن ما ينتج عنها من خلاف بسبب عدد ركعاتها محرم عقلاً وشرعاً.

فكم فسَّق المسلمون بعضهم بعضاً بسبب عدد الركعات، وكم شتموا بعضهم بعضاً، بل وضربوا في المساجد بعضهم بعضاً!.

دخل أحد الدعاة ليصلي التراويح في مسجد ما، فوجد التنازع قد بلغ مبلغه بين المسلمين لاختلافهم على عدد ركعات التراويح، فلما رأوه أقبلوا عليه ليحتكموا إليه، فقال لهم: اقترح عليكم أن تغلقوا المسجد وتنصرفوا إلى بيوتكم ولا تصلوا التراويح، لأن صلاة التراويح سنة، وخلافكم هذا محرم، ووحدتكم فرض، والإسلام علمنا أن نقدم الفرض على السنة.

ألا فلنتق الله أيها الدعاة، فإن المسلمين أمانة بأيديكم، ولنوجه المسلمين إلى العبادة والوحدة والمحبة في هذه الليالي الفضيلة، ولننزع من قلوبهم الشحناء والبغضاء، ونزرع في قلوبهم حب الله ورسوله ﷺ، ولنعلمهم كثرة الدعاء عسى الله أن يستجيب لدعوة مخلص منا، فيرفع عنا ما نزل بنا من فتن وإحنٍ ومصائب، فإن أمة اختلفت، وتنافرت قلوب أبنائها ليست مؤهلة لسدة الصدارة بين الأمم، أمة في قلوب أبنائها الشحناء والبغضاء، لا تستحق إلّا أن تكون ذليلة مهانة...

ولنقل للناس: إن الذي يصلي ثماني ركعات على صواب.

والذي يصلي عشرة على صواب.

والذي يصلي عشرين على صواب.

والذي يصلي تسعاً وثلاثين على صواب.

والذي يصلي إحدى وأربعين على صواب.

وهكذا تنتهي المشكلة العويصة التي أقضت مضاجع المسلمين مع مقدم شهر رَمَضَانَ من كل سنة، ولنحسن الظن بالمسلمين، ولننزه ألسنتنا عن عبارات التكفير والتضليل، فهذه العبارات لا تليق بمسلم يحمل مبدأ التوحيد في قلبه، ولا تليق بداعيةٍ حمل هم الأمة وأدرك المخاطر التي أحاطت براثنها بنا...

أيها الأحباب:

إن لصلاة القيام لذة لا يعرفها إلّا من ذاقها، ومتعة لو علمت بها الملوك لقاتلوا عليها أهلها بالسيوف، إنها الأنس باللّه الجليل، ومناجاته ومناداته، وبث الشكوى والنجوى، إنها قرة عين العابدين، ودأب الصالحين، يقومون في وقت هدأت فيه الأصوات، وأغمضت فيه الجفون، واستبلدت الأجساد على الأسرة الوثيرة، والسرر المريحة، فيعكفون في محراب العبودية، ويسكبون العبرات، فتسمو نفوسهم، وترق قلوبهم، وتترقى أرواحهم في مدارج الصفاء، ومنازل النقاء، حتى يتجلى الحق ﷻ عليهم فيعطيهم مناهم، ويمنحهم من أنسه وفضله وجوده، فيعيشون لحظات من أمتع وألذ ما رؤوا في دنياهم...

إنها لحظات نيرة، وساعات مباركة، يقول فيها النبي ﷺ: **«إن من الليل ساعة، لا يوافقها عبد مسلم يسأل اللّه خيراً، إلّا أعطاه إياه»**[1].

ساعة في الليل، وما أدراكم ما الليل... الليل ليل العابدين، ومسلك الواصلين، فيه أسري بالحبيب محمد ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسرَاء: 1]، وليس نهاراً، لأن النهار مليء بالأضواء والأصداء والضوضاء، مليء بالمكدرات والمزعجات، أما الليل ففيه من السكون والهدوء والصفاء، ما يمنح العابد سعة في التفكير، ومساحة للعبرة والتذكر...

الليل تحدث وحدثت فيه أعاجيب الزمان، فيه ليلة القدر ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ [القَدر: 1] وليس في النهار، الليل فيه مصابيح النور السماوية، وإشراقات القرآن الندية، تتلى فيه آيات اللّه بقلوب خاشعة، ونفوس أواهة رجاعة، قال تعالى في وصف الصالحين: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذّاريَات: 17، 18].

---

(1) رواه مسلم: 1/ 521، رقم: (757).

يقول ابن كثير رحمه الله[1]: قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم تكن تمضي عليهم ليلة إلّا يأخذون منها ولو شيئاً، وقال قتادة عن مطرف بن عبد الله: قلَّ ليلة لا تأتي عليهم إلّا يصلون فيها لله عز وجل، إما من أولها وإما من أوسطها، وقال مجاهد: قلَّ ما يرقدون ليلة حتى الصباح لا يتهجدون. . . وقال الحسن البصري: كابدوا قيام الليل فلا ينامون من الليل إلّا أقله، ونشطوا فمدوا إلى السحر حتى كان الاستغفار بسحر، وقال قتادة: قال الأحنف بن قيس: كانوا لا ينامون إلّا قليلاً ثم يقول: لست من أهل هذه الآية.

وقال الحسن البصري: كان الأحنف بن قيس يقول عرضت عملي على عمل أهل الجنة، فإذا قوم قد باينونا بوناً بعيداً، إذا قوم لا نبلغ أعمالهم، كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون، وعرضت عملي على عمل أهل النار، فإذا قوم لا خير فيهم مكذبون بكتاب الله وبرسل الله، مكذبون بالبعث بعد الموت، فقد وجدت من خيرنا منزلة قوماً خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

وقال عبد الله بن سلام رضي الله عنه: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه، فكنت فيمن انجفل، فلما رأيت وجهه ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب، فكان أول ما سمعته ﷺ يقول: «**يا أيها الناس أطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وأفشوا السلام، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام**»[2].

ولاحظوا هذا الميزان الدقيق الذي يزن الإيمان، فترجح كفة الصالحين القائمين القانتين، وتطيش كفة الكسالى النائمين، قال عز وجل: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزُّمَر: 9].

حقاً لا يستوون، إن القنوت والسجود آناء الليل، يورث في القلب إحساساً مرهفاً، وشفافية تفتح البصيرة، وتمنح الفؤاد صورة مشرقة من التلقي، لأن المعرفة

(1) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، 7/ 388.

(2) الحاكم في المستدرك، 3/ 14، رقم: (4283)، وقال: هذا حديث صحيح.

الحقيقية هي التي تقود العبد إلى رياض الليل النضرة، فينعم بالمناداة والتضرّع للّه تبارك وتعالى.

يقول الإمام الرازي في تفسيره الكبير: (في هذه اللفظة تنبيه على فضل قيام الليل، وأنه أرجح من قيام النهار، ويؤكده وجوه:

الأول: أن عبادة الليل أستر عن العيون، فتكون أبعد عن الرياء.

الثاني: أن الظلمة تمنع من الإبصار، ونوم الخلق يمنع من السماع، فإذا صار القلب فارغاً عن الاشتغال بالأحوال الخارجية عاد إلى المطلوب الأصلي، وهو معرفة الله وخدمته.

الثالث: أن الليل وقت النوم، فتركه يكون أشق فيكون الثواب أكثر)[1].

ولعظيم شأن الليل وما يقدم فيه من طاعات خالصة، وعبادات صافية، ولما لليل من وقع عميق في النفس البشرية، ذلك أن مقدم الليل الزاحف والظلام الدامس، يخشع فيه القلب، ومجاله فسيح للتأمل والتفكير في نواميس الكون التي لا تفتر لحظة، ولا تختل مرة، ولما له من إيقاع في الحس الإيماني، بهدوئه السارب، ونسمات سواده الرخية المتراكمة...

لهذا كله أمر الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ في كثير من الآيات البينات بقيام الليل، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾ [الإسراء: 79].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ٢٦﴾ [الإنسان: 26].

وخاطبه ﷻ قائلاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢﴾ [المُزمّل: 1، 2].

كل هذا ورسولنا ﷺ لا يفتر عن القيام، يصلي حتى تتورم قدماه، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، يقوم الليل ليستزيد من الترقية في مدارج الكمال،

(1) التفسير الكبير، للرازي 26/ 439.

وليكون عوناً له هذا الزاد على تبليغ الدعوة ونشر دين الله تبارك وتعالى، وإذا كان الحبيب محمد ﷺ هذا شأنه في القيام، فما أحوجنا نحن المسلمين إلى القيام لننال الدرجة الموعودة، خاصة نحن معاشر الدعاة، ما أحوجنا إلى النهل من ينابيع السحر ونسماته الصافية، لتكون عوناً لنا ونحن ندعو الناس إلى دين الله، وبدون هذا الزاد ـ وهذا الزاد وحده ـ تكون دعوتنا في مهب الريح، وفاقد الشيء لا يعطيه.

يـا أيهـا الصائمـون:

ليالي رَمَضَانَ ليال صافية، والقيام فيها يبهج النفس ويشرح الصدر، ويثقل الميزان، ويقصي الشيطان، فاغتنموها وحافظوا عليها، لئلا تتحسروا غداً على فراقها وقد فرطتم في جنبها، وضيعتم كثيراً من فضلها...

واعلموا بأن قيام الليل هو شعار الصالحين قبلنا، وفيه قربة إلى ربنا تبارك وتعالى، كما قال نبينا ﷺ: «**عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم، وهو قربة لكم إلى ربكم ومكفرة للسيئات، ومنهاة عن الإثم**»[1].

واعلم أخي المسلـم:

أن قيام الليل شرف المؤمن وعزه، ففي الحديث: «أن جبريل جاء النبي ﷺ وقال: يا محمد، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به، واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس»[2].

ومما وعد الحق ﷻ عباده القائمين، أن جعل لهم في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، قال ﷺ: «**إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، أعدها الله لمن ألان الكلام، وأطعم الطعام، وبات لله**

(1) صحيح ابن خزيمة، 2/ 176، رقم: (1135)، والحاكم في المستدرك، 1/ 451، رقم: (1156)، وقال: هذا حديث صحيح.

(2) الحاكم في المستدرك، 4/ 360، رقم: (7921)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد.

قائماً والناس نيام»[1].

لذلك فإن الشيطان لما علم بهذا الفضل العميم، سعى جاهداً ليصدك عن القيام، فحين تأوي إلى النوم يبادر الشيطان ليقطع الطريق عليك من البداية، كما قال ﷺ: «**يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب كل عقدة: عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عقدة فأصبح نشيطاً طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان**»[2].

ولذلك كان سلف هذه الأمة حريصين على أن لا تمر ليلة إلّا وضعوا الأقدام بين يدي الله تبارك وتعالى...

وكان ابن مسعود[3] رضي الله عنه إذا هدأت العيون قام، فسمع له دوي كدوي النحل حتى يصبح.

كان سفيان الثوري رحمه الله إذا أصبح، مدَّ رجليه إلى الحائط، ورأسه إلى الأرض، كي يرجع الدم إلى مكانه من طول القيام.

وقال الحسن رحمه الله: ما نعلم عملاً أشد من مكابدة الليل، ونفقة هذا المال فقيل له: ما بال المتهجدين من أحسن الناس وجوهاً؟ قال: لأنهم خلوا بالرحمٰن فألبسهم نوراً من نوره، وكان عبد العزيز بن روّاد إذا جنَّ عليه الليل، يأتي فراشه فيمر يده عليه ويقول: إنك لين ووالله إن في الجنة لألين منك، ولا يزال يصلي الليل كله.

وقال الفضيل: إني لأستقبل الليل من أوله فيهولني طوله، فأفتتح القرآن فأصبح وما قضيت نهمتي، وقال الحسن: إن الرجل ليذنب الذنب فيحرم به قيام

(1) صحيح ابن حبان، 2/ 262، رقم: (509)، والحاكم في المستدرك، 1/ 153، رقم: (270)، وقال: هذا حديث صحيح.

(2) رواه البخاري، 1/ 383، رقم: (1091).

(3) إحياء علوم الدين، 1/ 492.

الليل، وقال الفضيل: إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك محروم وقد كثرت خطيئتك.

وكان للحسن بن صالح جارية فباعها لقوم، فلما كان في جوف الليل قامت الجارية فقالت: يا أهل الدار الصلاة... الصلاة، فقالوا: أصبحنا؟ أطلع الفجر؟ فقالت: وما تصلون إلّا المكتوبة؟ قالوا: نعم، فرجعت إلى الحسن فقالت: يا مولاي بعتني لقوم لا يصلون إلّا المكتوبة؟ ردني، فردها.

وقال مالك بن دينار: سهوت ليلة عن وردي ونمت، فإذا أنا في المنام بجارية كأحسن ما يكون وفي يدها رقعة فقالت لي: أتحسن تقرأ؟ فقلت: نعم، فدفعت إليَّ الرقعة فإذا فيها:

أَألهتْكَ اللَّذائذ والأماني عن البِيضِ الأوانسِ في الجنانِ

تعيشُ مخلّداً لا موْتَ فيها وتلهو في الجنان مع الحِسَانِ

تنبّه مِنْ مَنَامِكَ إنَّ خيراً مِنَ النَّوْمِ التهجّد بالقرآنِ.

للّه درُهم من رجال ما أتقاهم، للّه درُهم من أناس عرفوا فالتزموا، وسلكوا طريق الهدى والحب فوصلوا، وصدق ربنا تبارك وتعالى عندما وصفهم فقال: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [السَّجدَة: 16].

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ وكأن بين جنوبهم وبين الفراش جفوة وعداء، وكيف ينامون وقد علموا أن الليل فيه قضاء الحاجات،فيه تفريج الكربات، فيه انزياح الهموم وانشراح الصدور، فيه اللقاء مع أكرم الأكرمين.

أين أنتم يا أصحاب الحاجات؟

أين أنتم يا أصحاب الكربات؟

أين أنتم أيها المضطرون البائسون؟

أين أنت يا من نزلت بساحتك المصائب، وطوقتك النكبات، قم إلى ربك

غافر الزلات، ومقيل العثرات، ومجيب دعوة المضطرين، فحاشاه أن يخيب من دعاه، وأن يرد من رجاه. . .

أيها الأحبـــاب:

لقد ذكر الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في إحيائه[1] أسباباً تعين على القيام، وسأسوقها لكم مختصرة، يقول: اعلم أن قيام الليل عسير على الخلق، إلّا على من وفق للقيام بشروطه الميـــرة له ظاهراً وباطناً.

فأما الظاهرة فأربعة أمور:

1 أن لا يكثر الأكل فيكثر الشرب، فيغلبه النوم ويثقل عليه القيام.

2 أن لا يتعب نفسه بالنهار في الأعمال التي تعيا بها الجوارح، وتضعف بها الأعصاب فإن ذلك أيضاً مجلبة للنوم.

3 أن لا يترك القيلولة بالنهار، فإنها سنَّة للاستعانة على قيام الليل.

4 أن لا يرتكب الأوزار بالنهار ما استطاع، فإن ذلك مما يقسي القلب ويحول بينه وبين أسباب الرحمة.

وأما الميسرات الباطنة فأربعة أمور:

1 سلامة القلب عن الحقد على المسلمين، وعن البدع وعن فضول هموم الدنيا فالمستغرق الهم بتدبير الدنيا لا يتيسر له القيام، وإن قام فلا يتفكر في صلاته إلّا في مهماته ولا يجول إلّا في وساوسه.

2 خوف غالب يلزم القلب مع قصر الأمل، فإنه إذا تفكر في أهوال الآخرة ودركات جهنم طار نومه وعظم حذره، كما قال طاوس: إنّ ذكر جهنم طير نوم العابدين.

3 أن يعرف فضل قيام الليل بسماع الآيات والأخبار والآثار، حتى يـتحكم به

(1) إحياء علوم الدين، 1/ 494.

رجاؤه وشوقه إلى ثوابه، فيهيجه الشوق لطلب المزيد والرغبة من درجات الجنان.

4 وهو أشرف البواعث، الحب للّه وقوة الإيمان بأنه في قيامه لا يتكلم بحرف إلّا وهو مناج ربه، وهو مطلع عليه مع مشاهدة ما يخطر بقلبه، وأن تلك الخطرات من الله تعالى خطاب معه، فإذا أحب الله تعالى أحب لا محالة الخلوة به، وتلذذ بالمناجاة، فتحمله لذة المناجاة بالحبيب على طول القيام.